آداب التعلم والتعليم عند العرب

إذا كانت الأمة العربية قد استطاعت أن تقيم حضارة فاضت بذكرها أنهر الكتب والصحف فى مختلف أنحاء العالم ، وإذا كانت هذه الحضارة قد استطاعت أن تمد الإنسانية بأشهى ما شهده العالم من ثمار فى القرون الماضية ، فإن استقراء أحوال هذه الأمة يدل بما لا يدع مجالا للشك أن هذا كله لابد أن يكون مستندا إلى تربية خاصة استطاعت بها أن تبدع ما أبدعته وتنتج . ولا نقصد بذلك هذه التربية المنظمة المقصودة التى تتم داخل معاهد العلم ، وإنما نقصد تلك القواعد والأساليب والمعايير والآداب التى شاعت بين العرب والتى كان من شأنها أو بمعنى أصح كان من شأن العمل بها أن يضيف جديدا مرغوبا فيه إلى شخصياتهم ويحقق نموا تربويا فى سلوكهم . وسوف نعرض فى الصفحات القليلة الآتية بعضا من هذه القواعد والآداب ، نقول بعضا لأن التعرض لها على سبيل الحصر والاستقراء التام مما ينوء بحمله مثل هذا المقال ، كما أنه أضخم من أن يقوم بعبئه فرد واحد ، فما هى النماذج والأمثلة التى يمكن أن نذكرها فى هذا المقام ؟

إعطاء العلماء حقهم من التقدير والإجلال والاحترام :

ولابد من التنبيه هنا إلى أن العرب فى عصورهم الزاهرة لم يقيموا فرقا كبيرا بين العلماء والمعلمين ، فقد كان الفقهاء والفلاسفة والمفكرون والأدباء يقومون فى أغلب الأحوال بواجب تعليم ما وصلوا إليه من العلم والمعرفة إلى من يطلب ذلك . وتتبين لنا أهمية إعطاء العلماء حقهم من التقدير والاحترام من هذه القاعدة النفسية التى أصبح الاتفاق عليها شبه تام إن لم يكن تاما بالفعل ، وهى أن الإنسان لا يستطيع أن يعطى ما عنده من المعرفة إلى الآخرين إلا إذا أشعرناه بأنه يلقى فى مقابل ذلك تقديرا واحتراما أيا كانت الصورة أو الأسلوب الذى نعبر عن هذا التقدير والاحترام . وقد تجلى العرب بهذا فى مظاهر كثيرة نذكر منها ما يلى :

– فقد روى أن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : إن الشياطين قالوا لإبليس يا سيدنا ما لنا نراك تفرح بموت العالم ما لا تفرح بموت العابد ؟ فقال انطلقوا ، فانطلقوا إلى عابد قائم يصلى ، فقالوا له إنا نريد أن نسألك ، فانصرف ، فقال له إبليس : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى جوف بيضة ؟ فقال لا ، فقال أترونه كفر فى ساعة ؟ ثم جاء إلى عالم فى

حلقــة يضاحك أصحابه ويحدثهم فقال إنا نريد أن نسألك ، فقال سل . فقال هل يقدر ربك أن يجعــل الدنيا فى جوف بيضة ؟ قال نعم ، قال وكيف ، قال يقول لذلك إذا أراده كن فيكون . قال إبليس : أترون ذلك لا يعدو نفسه ، وهذا يفسد على عالما كثيرا .

- يروى عن أبى حنيفة عن حماد عن إبراهيم قال : بلغنى أنه توضع موازين القسط يوم القيامة فيوزن عمل الرجل فيخف ، فيجاء بشىء من الغمام أو السحاب فيوضع فى ميزانه فيرجع ، فيقال له أتدرى ما هذا ؟ فيقول لا ، فيقال هذا من علمك الذى علمته الناس فعملوا به وعلموه من بعدك .

- وينسب إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه من قوله وهو مشهور من شعره :

الناس فى جهة التمثيل أكفاء	أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة	وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم حسب	يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم	على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه	وللرجال على الأفعال أسماء
وضد كل امرئ ما كان يجهله	والجاهلون لأهل العلم أعداء

وأنشد عمر بن محمد بن عبد الحكم لبعض الحكماء :

بنور العلم يكشف كل ريب	ويبصر وجه مطلبه المريد
فأهل العلم فى رحاب وقرب	لهم مما اشتهوا أبدا مزيــد
إذا عملوا بما علموا فكل	له مما ابتغــاه ما يريــد
فإن سكتوا ففكر فى معاد	وإن نطقوا فقولهم سديــد

-خطــب زياد ذات يوم على منبر الكوفة فقال : أيها الناس إنى بت ليلتى هذه مهتما بخلال ثلاث رأيت أن أتقدم إليكم فيهن بالنصيحة : رأيت إعظام ذوى الشرف ، وإجلال ذوى العلــم وتوقير ذوى السن . والله لا أوتى برجل رد على ذى علم ليضع بذلك منه إلا عاقبته ،

ولا أوتـــى بـــرجل رد على ذى شرف ليضع بذلك من شرفه إلا عاقبته ، ولا أوتى برجل رد على ذى شبية ليضعه بذلك إلا عاقبته . إنما الناس بأعلامهم وعلمائهم وذوى أسنانهم .

– وإذا كـــان هذا هو ما يجب على الناس بمختلف مستوياتهم نحو العلماء والمعلمين ، فـــإن علـــى طـــلاب العلم أنفسهم ، بالإضافة إلى ذلك ، واجبات أخرى يلخصها على بن أبى طالـــب فى قوله : " إن من حق العالم ألا تكثر عليه بالسؤال ، ولا تعنته فى الجواب ، وأن لا تلـــح عليه إذا كسل ، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشين له سرا ، ولا تغتابن عنده أحدا ، ولا تطلـــبن عثـــرته ، وإن ذل قبلت معذرته ، وعليك أن توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ أمر الله، ولا تجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته " .

ولا ينبغـــى أن نفهـــم من قوله (ألا تكثر عليه السؤال) إلا أنه يريد عدم إثقال المعلم بالأسئلة ، كذلك فهو يريد من المتعلم هنا ألا يلجأ إلى أساليب التملق والتزلف التى قد يتصور بعض الطلاب والمعلمين أنها دليل احترام وتقدير بينما هى أبعد ما تكون عن شئ مثل هذا . وهو إذا كان يضرب مثلا بذلك ، أخذ الطالب بثوب المعلم إذا نهض ، فليس معنى هذا بطبيعة الحـــال أن الاســـتقباح قاصر على هذا المظهر فقط وإنما يمتد ليشمل كل فعل مماثل . وعدم الـــتملق لا يعنى ألا يسارع الطالب إلى خدمة المعلم إذا اقتضى الموقف ، فالتملق ليس خدمة حقيقـــية وإنمـــا هـــو تظاهر بها بهدف الحصول على منفعة خاصة ، وليست المسارعة إلى الخدمـــة مما يدخل فى باب النفاق إذا ما كان الغرض منها منفعة المحتاج إليها بالفعل . ثم إن احترام العالم والمعلم لا يكون مطلقا من كل قيد وشرط ، وإنما يضع شرطا هاما وهو (حفظ أمـــر الله) والمقصـــود بـــذلك استخدام العلم فى تثبيت دعائم الدين ومراعاة المصلحة العامة للمجتمع .

الأخذ بعين الاعتبار ما يكون عليه طلاب العلم من استعداد وقدرة :

ومـــن الحقائـــق النفســـية المعروفة الآن ، أن التلاميذ يختلفون فيما يكونون عليه من اســـتعداد وقـــدرة بالنســـبة لفروع المعرفة المختلفة ، وكذلك بالنسبة لكل ما يمكن تعلمه من مهارات الحياة المتعددة ، ومن مظاهر وعى العرب بذلك :

– فعـــن الحجاج بن أرطأة قال قال عكرمة : إن لهذا العلم ثمنا ، قيل وما ثمنه ؟ قال أن تضـــعه عند من يحفظه ولا يضيعه . وبطبيعة الحال لا يمكن لإنسان أن يقوم بواجب هذا

الحفظ إلا إذا وعاه وآمن واقتنع به واستطاع أن ينتفع به فى حياته ، وشىء مثل هذا لا يمكن أيضا أن يتم إلا إذا كان مناسبا لاستعداد الإنسان وقدراته .

- عـن رؤبـة بن العجاج : أتيت النسابة البكرى قال لى : من أنت ؟ قلت رؤبة بن العجاج قال : قصرت وعرفت ، فما جاء بك ؟ قلت : طلب العلم ، قال : لعلك من قوم أنا بين أظهـرهم إن سكت لم يسألونى ، وان تكلمت لم يعوا عنى ، قلت : أرجو ألا أكون منهم ، ثم قـال : أتـدرى ما آفة المروءة ؟ قلت لا ، فأخبرنى ، قال جيران السوء إن رأوا حسنا دفنوه ، وإن رأوا سـيئا أذاعوه . ثم قال يا رؤبة : إن للعلم آفة وهجنة ونكرا ، فآفته نسيانه ، وهجنته أن تضـعه عند غير أهله ، ونكره الكذب فيه . والمقصود بأهل العلم هنا ، الذين يستحقونه ، ومعيار الاستحقاق ، الاستعداد العقلى ، وليس ما يكون لدى الطالب من المال وما يكون عليه من علو المركز الاجتماعى .

- وقد نظم هذا المعنى بعض الحكماء فقال :

من منع الحكمة من أهلها ... أصبح فى الناس لهم ظالما

أو وضع الحكمة فى غيرهم ... أصبح فى الحكم لهم غاشما

لا خير فى المرء إذا ما غدا ... لا طالب العلم ولا عالما

ورحم الله القائل :

أنثر درا بين سائمة النعم ... أم أنظمه نظما لمهمدة الغنم

ألم ترنى ضيعت فى شر بلدة ... فلست مضيعا بينهم درر الكلم

فإن يشفنى الرحمن من طول ما أرى ... وصادفت أهلا للعلوم وللحكم

بثثت مفيدا واستفدت ودادهم ... وإلا فمحزون لدى ومكتتم

- ويـروى عن ابن مسعود قوله : ما حدثت قوما حديثا قط لم تبلغه عقولهم إلا كان فتـنة على بعضهم . وقد وصل الوعى بهذه القاعدة بالعرب إلى الدرجة التى نصح فيها الإمام مالك أبا جعفر المنصور بألا يفرض كتبه على مختلف الأقطار الإسلامية عندما عزم ذلك من فرط إعجابه بمالك ، مع أن أمرا كهذا كان من شأنه أن يبعث السرور بهذا الإمام الأمين ، فقد قـال له أبو جعفر : إنى قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التى وضعتها (يعنى الموطأ) فتنسخ

نسخا ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة ، وآمرهم أن يعلموا بما فيها لا يتعدوها إلى غيرها ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث فإني رأيت أصل هذا العلم رواية أهل المدينة وعلمهم .

فكان رد مالك : لا تفعل فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، وعملوا به ودانوا به من اختلاف الناس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم ، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد ، فدع الناس وما هم عليه وما اختار كل بلد لأنفسهم . فقال أبو جعفر : لعمرى لو طاوعنى على ذلك لأمرت به .

أهمية حسن الاستماع أثناء طلب العلم :

فلو انك تتبعت مناقشة تجرى بين عدد من الناس فى الوقت الحاضر ، فسوف تلمس ظاهرة عجيبة لا تحظى بالاهتمام وقاية وعلاجا رغم ما تسببه من ضياع الكثير من الوقت وتبديد جزء كبير من فائدة المناقشة ، أما هذه الظاهرة ، فهى عدم التزام المستمع بالصمت والسكون ليحسن الاستماع إلى ما يقوله المتكلم ، فيسارع أحيانا بالرد عقب سماعه لجملة أو جملتين دون انتظار لسماع بقية الكلام ، مما يؤدى فى كثير من الأحيان إلى إساءة الفهم وبالتالى إساءة الرد . . وهكذا ، ومن هنا كان قول الحسن بن على لابنه : يا بنى إذا جالست العلماء ، فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول ، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الصمت ، ولا تقطع على أحد حديثا وإن طال حتى يمسك .

وروى رجل من أهل الشام عن يزيد بن حبيب قال : إن من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع . وقال : وفى الاستماع سلامة وزيادة فى العلم ، والمستمع شريك المتكلم . ومن أحسن ما قيل فى ذلك قول نصر بن أحمد الخبزرزى :

لسان الفتى حتف الفتى حين يجهل ... وكل امرء ما بين فكيه مقتل

إذا ما لسان المرء أكثر هذره ... فذاك لسان بالبلاء موكل

وكم فاتح أبواب شر لنفسه ... إذا لم يكن قفل عليه مقفل

ومن أمن الآفات عجبا برأيه ... أحاطت به الآفات من حيث يجهل

أعلمهم ما علمتنى تجاربى ... وقد قال قبلى قائل متمثل

إذا قلت قولا كنت رهن جوابه ... فحاذر جواب السوء إن كنت تعقل

التعلم عملية مستمرة :

فالبعض من الناس يتوهم خطأ أن لطلب العلم فترة محددة يمكن للإنسان أن يحصل فيها على ما هو بحاجة إليه ، ثم ينتهى الأمر بعد ذلك ، فالمعرفة لا حدود لها وكل يوم يمر ، تتكشف لنا فيه أفكار جديدة ، والحياة تتجدد وتتغير يوما بعد يوم وما نراه صالحا اليوم قد يكشف الغد فيه جوانب أخرى تجعلنا نغير الرأى فى صلاحيته . . وهكذا . تلك أيضا حقيقة أخرى من الحقائق التى يلمسها المشتغلون بالعلم التربوى ، ومن الطريف حقا أن نجد لدى العرب من الأقوال والمواقف ما يظهر اهتمامهم بهذا الأمر ، وإن كنا لا نستطيع أن نطمح فى التطابق بين مبررات الأمس ومبررات اليوم ، ويكفينا أن يكون هناك تشابه كبير ووعى واضح .

- فيروى عن مالك بن أنس قوله : لا ينبغى لأحد عنده العلم أن يترك التعلم .

- وعن ابن عباس أنه قال : منهومان لا تنقضى نهمتهما ، طالب علم وطالب دنيا .

- وسئل سفيان بن عيينة : من أحوج الناس إلى طلب العلم ؟ قال أعلمهم ، لأن الخطأ منه أقبح .

التبكير فى التعلم :

فشخصية كل منا تتضمن العديد من العادات السلوكية التى يتكون الجزء الأكبر منها فى السنوات الأولى من عمر الإنسان حتى ليصعب على الكثيرين تغييرها رغم أن هذا التغيير مما تجيزه القوانين النفسية ، ومن هنا كانت أهمية البدء فى التعليم مبكرا خاصة وأن الإنسان فى فجر عمره يكون عادة قليل الشواغل والهموم والمتاعب مما يتيح له فرصة التفرغ لطلب العلم واستيعابه . فإذا أضفنا إلى ذلك ما هو معروف الآن فى علم النفس من أن لذكاء الإنسان حدا معينا لا ينمو فيه إلا بشكل بطىء جدا ، أدركنا أهمية هذه القاعدة ، وأدركنا أيضا عظمة العرب فى معرفتهم وعلمهم بها :

- فقد قال الحسن بن على لبنيه ولبنى أخيه : تعلموا العلم فإنكم إن تكونوا صغار قوم تكونوا كبارهم غدا ، فمن لم يحفظ فليكتب . وعن الحسن أيضا أنه قال : طلب الحديث فى الصغر كالنقش فى الحجر .

- ومن أقوال الشعراء العرب :

يقوم من ميل الغلام المؤدب ولا ينفع التأديب والرأس أشيب

وقول آخر :

إن الغلام مطيع من يؤدبه ولا يطيعك كهل حين يكتهل

- وذكر عثمان بن عروة عن أبيه بن الزبير أنه كان يقول لبنيه : يا بنى إنِ أزهد الناس فى عالم ، أهله ، فهلموا لى فتعلموا منى ، فإنكم توشكون أن تكونوا كبار قوم ، أنى كنت صغيرا لا ينظر إلىّ ، فلما أدركت من السن ما أدركت جعل الناس يسألوننى ، وما شىء أشد على أمرىء من أن يسأل عن شىء من أمر دينه فيجهله .

الترابط بين العلم والعمل :

فقد ورثت الإنسانية من الفكر اليونانى تلك التفرقة التى أقامها فلاسفته بين النظر والعمل ، بين الفكر والتطبيق ، على أساس أن الأول مما يقع فى نطاق اختصاص علية القوم ، أما الثانى فيختص به العبيد ، لأن الأول لا يتطلب جهدا بدنيا شاقا ومخاطرة على عكس الثانى ، ومن المؤسف حقا أن الكثيرين من الفلاسفة الإسلاميين قد تابعوا - بحكم التأثر - المفكرين الإغريق ، بينما كانت هذه التفرقة لا تتفق وروح الإسلام ومبادئه الذى حرص تمام الحرص على أن يوثق الروابط بين الفكر والتطبيق وبين العلم والعمل ، فهو بحكم كونه عقيدة تهدف بالدرجة الأولى إلى ترشيد السلوك الإنسانى وتعقيله لكى يصبح متوافقا مع ما ينبغى أن يكون ، لابد أن يعطى العمل اعتبارا هاما ، ولما كانت الخطوط العريضة لهذا العمل تختلف كثيرا جدا عما ألفه الناس وتعودوه وخاصة وقت نزول الرسالة المحمدية ، كان من الضرورى أن يعطى اهتماما آخر للنظرية التى يقوم عليها هذا العمل .

- فهذا الحسن يقول : العامل على غير علم كالسالك على غير طريق ، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح ، فاطلبوا العلم طلبا لا تضروا بالعبادة ، واطلبوا العبادة طلبا لا تضروا بالعلم ، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ ، ولو طلبوا العلم ما دلهم على ما فعلوا .

- وعن على رضى الله عنه قال : يا حملة العلم اعملوا به فإنما العالم من عمل بما علم فوافق عمله علمه وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم (يخالف علمهم ،

ويخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقا فيباهى تراقيهم) يخالف علمهم عملهم ، ويخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقا فيباهى بعضهم بعضا حتى أن الرجل ليغضب على جليسه إذا جلس إلى غيره ويدعه أولئك لا تصعد أعمالهم فى مجالسهم تلك إلى الله عز وجل .

التدرج فى التعلم :

فللمعرفة درجات ومستويات يصعب على المتعلم أن يستوعبها جملة واحدة ، لاختلاف استعداده باختلاف مراحل نموه فما هو صالح تعلمه فى الشباب ، يعسر تعلمه فى الطفولة ، كما أن العلم نفسه – حتى لو غضضنا البصر عن اختلاف مراحل نمو الإنسان بالنسبة له مراحل وتصنيفات تختلف باختلاف الدرجة التى وقف عندها المتعلم من طلبه ، ومن هنا كانت هذه القاعدة التى تفترض من القائم بأمر التربية والتعليم أن يراعيها عند قيامه بواجبه فى هذا الشأن :

– عن يونس بن يزيد قال لى ابن شهاب : يا يونس لا تكابر العلم ، فإن العلم أودية ، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه ، ولكن خذه مع الأيام والليالى ، ولا تأخذ العلم جملة ، فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة ، ولكن الشىء مع الأيام والليالى .

عندما نطلب العلم لابد من أن نراعى مدى ما يمكن أن يحققه لنا من المنفعة :

فقد كانت هناك دعوة مشهورة يذهب القائلون بها إلى أن الإنسان إذ يسعى لطلب المعرفة ينبغى ألا يطلب فائدة أو منفعة إلا أن يكون ذلك للاستمتاع الفكرى ، بل لقد غالى فلاسفة الإغريق فى ذلك وادعوا أن المعرفة إذا لم تتجرد من المنفعة والفائدة لا ينبغى أن تدخل فى نطاق العلم الصحيح ، وها نحن فى القرن العشرين الآن نستسخف هذا الرأى ونقول بعكسه ، بل وارتبطت إحدى الفلسفات المعاصرة بكلمة المنفعة والفائدة وهى الفلسفة البرجماتية وخاصة كما نقرؤها فى كتابات وليم جيمس ، وكم هو طريف حقا أن نلمس شيئا من هذا لدى العرب :

– أنشد محمد بن مصعب لابن عباس :

ما أكثر العلم وما أوسعه من ذا الذى يقدر أن يجمعه

إن كنت لابد له طالبا محاولا فالتمس أنفعه

– واذا كـــان الـــبعض يهاجم ربط العلم بالمنفعة على أساس أن ذلك يجعله شخصيا ، فإنـــنا نجـــد من الأقوال العربية ما يفيد أن المقصود هنا ، فائدة مجموع الناس ، قال مالك بن دينار : من طلب العلم لنفسه فقليل العلم ، ومن طلبه للناس ، فحوائج الناس كثيرة .

– وقالـــت امرأة للشعبى : أيها العالم افتنى فقال : إنما العالم من خاف الله عز وجل . والخـــوف مـــن الله ، كما نفهم من السياق العام ، أحد مظاهره ، أن يطلب بالعلم منفعة الناس ومن هنا قال أبو الدرداء : إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة ، عالم لا ينتفع بعلمه . وروى عن سلمان الفارسى أنه قال : إن العلم لا ينفذ ، فاتبع منه ما ينفعك ، وقيل أيضا : من لم ينفعه قليل علمه ضره كثيرة .

وأنشد الشاعر العربى يقول :

إذا أنت لم ينفعك علمك لم تجد لعلمك مخلوقا من الناس يقبله

وإن زانك العلم الذى قد حملته وجدت له من يجتنيه ويحمله

مصاحبة العلماء

فمـــن القـــوى الهامة التى تلعب دورا خطيرا فى توجيه سلوك الإنسان وتشكيله ، من يحيطون به من أقران حتى لقد قيل أن المرء بقرينه يقرن ، وبناء على هذا فإنك إذا أردت أن تكـــون صـــورة عن إنسان ما – فإنك تستطيع أن تقف على الكثير من أجزاء هذه الصورة لو أنك استطعت أن تأخذ فكرة واضحة عن زملائه وأصدقائه . فإذا ما كان ذلك كذلك ، فما بالك إذا حـــرص الإنسان على مجاورة العلماء ومجالستهم ومصاحبتهم أطول قدر ممكن من الوقت ؟ ولعل هذا هو السر فى قول الشعبى :

جالســـوا العلمـــاء فإنكم إن أحسنتم حمدوكم ، وإن أسأتم تأولوا لكم وعذروكم ، وإن أخطأتم لم يعنفوكم ، وإن جهلتم ، علموكم ، وإن شهدوا لكم نفعوكم .

ضرورة المساءلة والمناقشة فى التعليم :

فالإنســـان الذى يقف أمام عجيبة من عجائب الحياة دون أن نثير لديه التساؤل عنها ، يفقـــد مقـــوما هامـــا من مقومات إنسانيته ، ذلك أن الإنسان يتميز دون سائر الكائنات الحية الأخـــرى فـــى قدرته على الاندهاش ، على أن يدفعه هذا الاندهاش إلى جمع المعلومات التى

تطفئ ظمأه وتشبع نهمه المستمر نحو المعرفة ، ومن هنا كان ضروريا ألا يستحى إنسان من أن يسأل عما يجهل :

- قالـــت عائشة رحمها الله : رحم الله نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمر دينهن .

- وقال أمية بن الصلت :

لا يذهبن بك التفريط منتظرا طول الأناة ولا يطمح بك العجل

فقد يزيد السؤال المرء تجربة ويستريح إلى الأخبار من يسل

وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ولا البصير كأعمى ماله بصر

فاستخبر الناس عما أنت جاهله إذا عصيت فقد يجلو العمى الخبر

- ودعـــا معاويـــة بن أبى سفيان دعبلا النسابة فسأله عن العربية وسأله عن أنساب الـــناس ، وســـأله عن النجوم ، فإذا الرجل عالم ، فقال يا دعبل ، من أين حفظت هذا ؟ قال حفظت هذا بقلب عقول ، ولسان سؤول .

- وعن ابن شهاب قال : إن هذا العلم خزائن تفتحها المسألة .

عدم حجب العلم ووجوب نشره :

إن الفـــرد منا إذا اكتسب علما ، فإن قيمة هذا العلم إنما تكون بتعميم فوائده بين الناس كمـــا ســـبق أن بينا ، ويرتبط بهذا أيضا ألا يكون العلم احتكارا ، وأن يبادر المتعلم بإذاعة ما علمـــه علـــى الـــناس حتى تتم الشركة فى العلم ، فهذا ابن عباس يقول : مثل علم لا يظهره صـــاحبه كمـــثل كنز لا ينفق منه صاحبه . ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد ذم فى قرآنه المجيد هؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها على الناس .

وروى أبو زيد بن أبى الغمر عن ابن القاسم قال : كنا إذا ودعنا مالكا يقول لنا : اتقوا الله وانشروا هذا العلم ولا تكتموه . كذلك كان مالك بن أنس يقول : بلغنى أن العلماء يسألون يوم القيامة كما تسأل الأنبياء ، يعنى عن تبليغه .

وذكر جعفر بن برقان : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز : أما بعد فمر أهل الفقه والعلم من عندك فلينشروا ما علمهم الله فى مجالسهم ومساجدهم ، والسلام .

لا إفتاء إلا فيما نعلم :

ذلـك أنه يعز على بعض الناس حتى من العلماء أو من المتشبهين بهم أن يسألوا فى أمر يعجزون عن الإجابة عنه فيفتون فيه ولو لم يكن هذا الأمر مما يقع فى حدود اختصاصهم ومعـرفتهم ، أما العلماء الذين يستحقون هذه الصفة حقا فهم هؤلاء الذين لا يتحرجون إذا ما سـئلوا فـى أمـر لا يعلمونه أن يعتذروا عن الإجابة . وتبدو المسألة أخطر من ذلك بالنسبة للمعلمين بالذات ، فالتلاميذ يأخذون ما يقوله المعلم على أنه صحيح لا يمكن الشك فيه، ومن هنا فإنه إذا أجاب فى مسألة لا يعلمها إجابة غير صحيحة ، وسمع التلاميذ الإجابة الصحيحة من شخص آخر فسوف يكذبونه ولا يكذبون المعلم ، ومن هنا قول على : خمس احفظوهن لو ركبـتم الإبل لأنضيتموها قبل أن تصيبوهن : لا يخاف عبد إلا ذنبه ولا يرجو إلا ربه ، ولا يستحى جاهل أن يسأل ، ولا يستحى عالم إن لم يعلم أن يقول الله أعلم ، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا خير فى جسد لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له .

ولا شـك أن المعلم أو العالم إذا فعل ذلك ، اتسم بصفة هامة لابد منها وهى التواضع ومـن ثـم فقد قالوا أن المتواضع من طلاب العلم أكثر علما ، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء . وقيل لبرزجمهر : ما النعمة التى لا يحسد عليها صاحبها ؟ قال : التواضع ، قيل لـه : فمـا البلاء الذى لا يرحم عليه صاحبه ؟ قال : العجب . وقال : التواضع مع السخافة والـبخل أحمد من الكبر مع السخاء والأدب ، فأعظم بحسنة عفت عن سيئتين ، وأفظع بعيب أفسد من صاحبه حسنتين .

ويـرتبط بهذا أيضا إجابة الإنسان عن تساؤل ظنا منه أن ذلك هو الحق ، بينما يشهد آخـر أن ذلك غير صحيح ، ويأتى الدليل على ذلك ، فلا يستحى أن يعترف بأنه أخطأ مهما كانـت منزلته ، فها هو عبد الله بن مصعب يروى عن عمر بن الخطاب قوله : لا تزيدوا فى مهـور النسـاء علـى أربعـين أوقية ولو كانت بنت ذى العصبة ، يعنى يزيد بن الحصين الحارثـى ، فمـن زاد ألقيت زيادته فى بيت المال ، فقامت امرأة من صف النساء طويلة فيها فطـس فقالت ما ذاك لك ، قال ولم ؟ قالت لأن الله عز وجل يقول : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ﴾ فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ .

المعرفة تأتى عن طريق الخبرة والاكتساب :

فمن المعروف أن جمهرة كبيرة من الفلاسفة القدماء وعلى رأسهم سقراط وأفلاطون ، تؤكد أن الإنسان يولد مزودا بعدد من الأفكار الرئيسية التى منها ينسج سائر معارفه الأخرى حتى تلك التى يتوصل إليها نتيجة البيئة والخبرة ، وعندما هب بعض الفلاسفة الغربيون المحدثون ينادون بالعكس من ذلك بأن الإنسان يولد وعقله صفحة بيضاء ، ثم يكتسب بعد ذلك معارف من الخبرة ، عد ذلك تطورا كبير نحو الأرقى والأحسن ، ومن حسن الحظ حقا أن نجد وعيا لدى العرب بهذا ، وعيا بأن المعرفة مكتسبة وليست فطرية ، فقد قال أحدهم : إن الرجل لا يولد عالما وإنما العلم بالتعلم . ومن رجز لسابق البربرى :

قد قيل قبلى فى الكلام الأقدم إنى وجدت العلم بالتعلم

طائفة أخرى من التقاليد والآداب التربوية :

ولا يقتصر الأمر على ما سبق ذكره ، وإنما عرف المسلمون عددا آخر من التقاليد والآداب التى تميزت بها تربيتهم ، من ذلك على سبيل المثال :

- العالم أحد الناس وألومهم ، فعندما سألت امرأة إبراهيم النخعى عن علة هذا الأمر ، قال لأن " العلم معنا والجهل مع مخالفينا ، وهم يأبون إلا دفع علمنا بجهلهم ، فمن ذا يطيق الصبر على هذا ، وأما اللوم فأنتم تعلمون تعذر الدرهم الحلال ، وإنا لا نبتغى الدرهم إلا حلالا ، فإذا صار إلينا لم نخرجه إلا فى وجهه الذى لابد منه " .

- السعى والسفر من أجل العلم : فقد كان طالب العلم إذا سمع عن عالم وكان هذا العالم يقيم فى بلد آخر ، سافر وسعى إليه مهما كان هذا البلد بعيدا ، مع ما نعرفه من مشاق السفر فى ذلك الوقت ، فعن ابن عباس قال : كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، فلو أشأ أن أرسل إليه حتى يجيئنى فيحدثنى فعلت ، ولكنى كنت أذهب إليه فأقيل على بابه حتى يخرج إلى فيحدثنى . وقال الشعبى : لو أن رجلا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ما رأيت أن سفره ضاع .

- فلتطلب المعرفة مهما كان مصدرها : وفى هذا المعنى روى عن على أنه قال : العلم ضالة المؤمن فخذوه ولو من أيدى المشركين ، ولا يأنف أحدكم أن يأخذ الحكمة ممن

سـمعها مـنه ، وقال بلال بن أبى بردة : لا يمنعكم سوء ما تعلمون منا أن تقبلوا أحسن ما تسمعون منا .

- **مراعاة المساواة بين المتعلمين** : وفى ذلك قال موسى بن عبد الله الخاقانى :

علم العلم لمن أتاك لعلم واغتنم ما حييت منه الدعاء

وليكن عندك الفقير إذا ما طلب العلم والغنى سواء

- **لابـد لطـلاب العلم من الالتزام بالوقار** : فهناك بعض الناس يظنون خطأ أنَ من مظاهـر التواضع كثرة الضحك والهزل ، ومن هنا قال على بن أبى طالب : تعلموا العلم فإذا تعلمتموه فاكظموا عليه ولا تخلطوه بضحك ولا بلعب فتمجه القلوب .

وبعد ....

فهـذه هى نماذج وأمثلة لما سارت عليه عملية التربية والتعليم عند العرب من آداب وتقالـيد فلنـتأملها جيدا فما ظل صالحا إلى اليوم فلنتبناه ، وما لم يصلح فلننحه جانبا ، وفى ظنـى أن كـل مـا ذكرناه فى هذا المقام ما زال حتى اليوم يتمناه ويأمله المشتغلون بالعمل التربوى والباحثون فى العلم التربوى والنفسى .